انتفاضة الشيخ عبيد الله النهري

الباحث عبد الله شكاكي

مدخل:

اشتدت روح العداء لدى الشعب الكردي تجاه الدولة العثمانية بعد إخفاق انتفاضتي "بدرخان بك" و"يزدان شير" في منتصف القرن التاسع عشر، وما أعقبتها من مجازر دموية ونفيٍ وتهجير، ومثله تجاه بريطانيا التي ناصرتها في خنق ثورات الكرد في القرن التاسع عشر، وقد عمدت الدولة العثمانية إلى زيادة الضرائب المتنوعة على الشعب، ناهيك عن التدهور الاقتصادي القائم أصلاً في كردستان التي كانت مسرحاً للعمليات العسكرية، ولم يتمكن الكرد من زراعة أراضيهم وجني محاصيلهم، وبغية زيادة عدد دافعي الضرائب "قررت الدولة تحويل القبائل الكردية المتنقلة إلى حياة الاستقرار بالقوة"[1] ، في ولايات: وان، موش، بيازيد وسرحد (قارص)، وما يترتب على تنفيذ القرار من دفع الضرائب وسَوْق الشبان إلى الخدمة العسكرية التي قد تطول لأكثر من عشر سنوات، ولذلك زاد سخط الشعب وقد دفع زعماءهم إلى التفكير جدياً للقيام بانتفاضة جديدة، أو ترك الوطن والالتجاء إلى روسيا أو إيران.

استغل شيوخ الدين مرحلة فشل مبادرات المؤسسات القبلية والعشائرية لتأسيس مملكة كردستانية، حيث صعّدت المؤسسات الدينية- المشيخية نشاطاتها وعززت مكانتها وبرزت إلى المقدمة، وذلك مع انهيار انتفاضات البدرخانيين؛ لتحل محل المؤسسة القبلية التي فشلت في إدارة المجتمع وحماية حقوقه وقيادة انتفاضاته، وتمكن شيوخ الدين استغلال هذه المرحلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد تصدّر دور قيادة المجتمع شيوخ الطريقتين النقشبندية[2] والقادرية[3] اللتين لهما مكانة راسخة في كردستان، ربما تعود ذلك إلى القرون الوسطى أو ربما تمتد جذورهما إلى الرهبان السومريين، حيث كان "الشعب غير مطّلع على جانب العمالة والتواطؤ لمؤسسة المشيخة"[4] مع السلطنة العثمانية.

علمت الدولة بما يدور في خيال الكرد، خاصة بعد رؤيتها تعاظم شأن الحركة الدينية (النقشبندية) في غضون فترة قصيرة، ليس بدعم من علماء الدين فحسب بل بمؤازرة من القبائل والجماهير الشعبية التي تهدف إلى إنشاء كيان قومي حماية لمصالحها، فاتخذت الدولة الاستعدادات اللازمة خاصة بعد انتهائها من قمع تمردات جبال "گ□ر[5] Gever" و"وان" بقسوة بالغة ضد الكرد وجيرانهم الآشوريين والأرمن، هذا وكانت قبلها قد قامت انتفاضة أرمنية في "زيتون- اقليم كيليكيا" سنة 1875 وانضمت إليها القبائل الكردية في "ألبستان" وجوارها، كما قامت أحداث مماثلة في مناطق ديرسم الجبلية، وقد عجزت الدولة العثمانية

---

[1] جليل جليلي انتفاضة الأكراد 1880 ، ترجمة سيامند سيرتي ، دار الكاتب- بيروت 1979ص 27.

[2] الطريقة النقشبندية حركة صوفية سنية ابتدأت من الشيخ محمد بهاء الدين البخاري ولقب شيخها "شاه نقشبند" يتألف الاسم من جزئين: "نقش" بمعنى الختم أو الرسم ، و"بند" بمعنى الربط ويتبين أن التسمية منحدرة من الكردية ، ما يميز هذه الطريقة "الرابطة" وهي استحضار المريد أثناء الذكر صورة شيخه واستمداد شيخه من رسول الله ، انتشرت هذه الطريقة من بخارى وسمرقند إلى القوقاز وبلاد الهند وكردستان والعراق والشام ومن روادهم المشهورين: الشيخ عيسى الكردي الذي نشر الطريقة في سوريا ومن خلفائه مولانا الشيخ خالد المنحدر من السليمانية والشيخ أمين كفتارو من دمشق، ومولانا خالد هو الذي دفع مدارس السلطنة إلى الأمام بعد قيام السلطان محمود الثاني بتوجيه ضربة قاتلة إلى تنظيم الانكشارية ومربيهم شيوخ البكداشية، حيث حلّ شيوخ النقشبندية محل أمراء الانكشارية وشيوخ البكداشية باعتبارهم "المتواطئين الجدد مع السلطنة وازداد نفوذهم في القصور مع مرور الأيام".

[3] الطريقة القادرية هي أيضاً حركة صوفية سنية تنسب إلى الشيخ عبد القادر الگيلاني، كان لرجالها دور كبير في نشر الإسلام في افريقية وآسيا والوقوف في وجه الانتشار الأوربي في بلاد المغرب، ومن أهم أسسها: الالتزام بالكتاب والسنة، الجِدّ والكدّ ولزوم الحذر، الاجتماع والاستماع حتى الانتفاع، حب الشيخ، الدعوة إلى الله ومحبة آل البيت وكل الأولياء والصالحين، وقد تفرعت إلى طرائق عدة.

[4] أوجلان عبد الله ، مانيفستو الحضارة الديمقراطية الجزء الخامس – القضية الكردية ص 289.

[5] بلدة ومركز قضاء في اقليم هكاري على الحدود السياسية بين شمال كردستان وشرقها.

عن قمع التمردات بقوة السلاح لاتساع ساحة العمليات، وإصرار المنتفضين على المقاومة ومواصلة الحرب حتى الاستقلال، مما اضطرت الدولة اللجوء إلى أسلوب الحيلة وبث الفرقة وتقديم الرشاوى لبعض الزعامات الكردية، كما وعد القائد العثماني سامح باشا أهالي ديرسم "إعفاءهم من الضرائب المستحقة مقابل العمل على فتح طريق وتعبيده بين مدينتي "آمد" و"أرزنگان" عبر مدن: پولومور- خوزات- ملازگرد- پالو ، ليتمكن الجيش من نقل الأسلحة الثقيلة إلى جبال ديرسم العاصية، لكنّ الأهالي ثاروا على زعمائهم وشيوخهم ورفضوا العمل وقتلوا قائمقام ديرسم"[6].

مع اندلاع ثورة الشعوب السلافية ضد السلطنة العثمانية في البوسنة وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا سنة 1875م، وتضارب مصالح إنكلترا وروسيا والنمسا حول السيطرة على مضايق البحر الأسود والبوسفور، حاولت الدولة العثمانية كعادتها عند الضيق كسب ودّ القبائل الكردية وزعمائها بالهدايا والوعود، بغية تجنيد فرق كردية من "الفرسان" كرديف لجيشها لمواجهة الشعوب المنتفضة وكلفت سامح باشا بهذه المهمة، لكن الأخير أصيب بالإحباط عندما رفضت القبائل الكردية الانضمام إلى تلك الفرق.

وفي محاولة ثانية اتصلت الدولة العثمانية مع إبراهيم باشا زعيم القبائل الملّية الأكثر تعاطفاً مع السلطنة وكذلك مع كرد ديرسم، إلا أن الكرد عامةً لم يبدوا استعداداً للانخراط في تلك التشكيلات، علاوة على ذلك أجرى البعض من البگوات الكرد اتصالات مع الروس وأبدوا استعدادهم لمساعدة الجيش الروسي في حربه ضد السلطنة، وقد عمدت بريطانيا من جهتها إلى حشد طاقات كردستان في الحرب ضد روسيا إلى جانب السلطان، كما طلبت بريطانيا من السلطان إبعاد الزعماء الكرد المناوئين للسلطنة، وبهذا الصدد كتب القنصل الروسي في أرزروم سنة 1878 "يلعب الانكليز الدور الرئيسي في المسألة الكردية وليس الأتراك ، فلدى زميلي (يقصد السفير- المؤلف) الانكليزي أدق الخطط حول كيفية القضاء على مقاومة الكرد"[7] ، لكن الملفت للنظر أن الدولة العثمانية رفضت المقترح البريطاني خشية تصعيد الوضع المتوتر أصلاً.

كانت المواقف الروسية أكثر اعتدالاً وشفافية من الانكليز حسب الرأي السائد لدى الكرد ، وخاصة بعد تأييدها لثورة شعوب البلقان ، وكان الروس يفضلون التعامل مع الكرد لاعتقادهم أنهم يحملون في قلوبهم حقداً من جيل إلى جيل تجاه الأتراك من جهة ، ومن جهة ثانية أن الكرد ولأنهم يمتلكون مهارات حربية فائقة وقوة تحمُّل الصعاب ورثوها من طبيعتهم الجبلية القاسية ، ولذلك عمد الروس إلى كسب عطفهم والاستفادة منهم وإبعادهم عن الإدارة العثمانية ومكائد الانكليز تجنباً لشحنهم ضدهم.

الحرب الروسية- العثمانية (1877-1878):

اتخذ الجيش الروسي الاستعدادات الكاملة لخوض حربٍ استعماريةٍ مع السلطنة العثمانية، لكن جيش الأخيرة كان في وضع لا يحسد عليه بسبب نقص الجنود والعتاد والمؤن والأموال، وبغية التغلب على تلك الصعاب أعلن السلطان عبد الحميد "الحرب المقدسة" في سبيل الإسلام لاستغلال العاطفة الدينية ، في وقت كان معظم الكرد يعادون فيه السلطنة ويفضلون التعاون مع الروس، لكن إطلاق نداء الحرب المقدسة أوقعت "الملالي"، وعلى رأسهم الشيخ عبيد الله النهري النقشبندي ذو النفوذ القوي وخلفه آلاف المريدين في خيار صعب، وقد حدث ما لم يكن بالحسبان، عندما وافق الشيخ عبيد الله على الدخول في الحرب إلى جانب جيش السلطان سنة 1877، مع أن الواجب والتوقعات كانت عكس ذلك، وكان القنصل الروسي في أرزروم "إيگناتوف" قد كتب في مذكرته "لا عبيد الله ولا جده الشيخ حسين ولا أبيه أظهروا في وقت من

[6] جليل جليلي مرجع سابق ص 29.
[7] مرجع سابق ص 31.

الأوقات موقفاً معادياً لروسيا، وكانوا على الدوام في موقف معارض للسلطنة العثمانية"[8] ، وقد توجّه الشيخ عبيد الله فوراً على رأس مريديه نحو خطوط الجبهة دون أن يفصح عن هواجسه وأسباب انضمامه.

اندلعت المعارك بين الطرفين وكان الجيش العثماني قد ألقى عبء الحرب على كاهل الكرد القريبين من ساحة الحرب وأهالي ولاية "بيازيد" خاصة، فقد فرض على كل عائلة "خروفين وظرفاً من السمن وزوجاً من الجوارب الصوفية أو تسديد قيمتها نقداً، إضافة إلى إسكان الجنود في منازلهم أثناء الراحة والنوم"[9] ، كما قامت الدولة بفرض الأتاوات على الميسورين من أهالي أرزروم، واللجوء إلى سلب السكان لتأمين رواتب الجنود، لذلك فرّ الكثير من الجنود الكرد من ساحة الحرب ومن بينهم مريدي الشيخ عبيد الله بعد أن تركوا أسلحتهم واصطحبوا معهم أسلحة حديثة، ثم بدأت فرق وكتائب كاملة تنفصل عن الجيش، ومن ثم انفصل الشيخ نفسه بعد فرار ثلثي مريديه من ساحة الحرب، وانضم قسم من الكرد الفارّين إلى الجانب الروسي.

كتب النقيب الانكليزي "نورمان" في بحث عن الحرب الروسية- العثمانية: "إن الكرد خيّبوا آمال الأتراك في الحرب"[10] وخسرت السلطنة الحليف الكردي، وقد ارتفعت روح العداء بين الكرد تجاه الدولة العثمانية بسبب جريان الحرب على أراضيها وما لحقها من خراب ودمار، وفي مناطق ديرسم (العلوية) كان العداء أكثر شدة قومياً ومذهبياً، حيث رفض "قوزاق بك" أحد زعمائهم طلب الدولة مؤازرة الجيش لمواجهة القوات الروسية التي استولت على "سرحد" و "بيازيد" ، كما أنه لم يسمح بمرور الجيوش العثمانية على الطرق المؤدية إلى مناطق الحرب عبر أراضيه.

مقاومة ديرسم:

اتّخذ أهالي ديرسم الاستعدادات اللازمة للانتفاضة أثناء الحرب العثمانية- الروسية، ولعلمهم سلفاً أن الجيش العثماني سيلجأ إلى تعريض القرى للسلب والخراب، ولذلك قاموا بنقل أموالهم وأمتعتهم وتركوا القرى واتجهوا صوب الجبال استعداداً للانتفاضة ومواجهة الجيش العثماني، وفي تلك الأثناء كان الباب العالي (الحكومة) قد وجّه الفيلق الرابع إلى ديرسم لوضع حد للثائرين الطامحين للاستقلال، وكان الانكليز كعادتهم يصفون النشاطات الثورية الكردية بأعمال السلب والنهب، لكنهم في هذه المرة اعترفوا بأن الكرد ثاروا لهدف الاستقلال.

احتدمت المعارك مع الجيش القادم عن طريق "خوزات" واستمرت لثلاثة أيام، حيث أجبرته قوات الثائرين على التقهقر والانسحاب إلى سهل "باخ"، ثم عاد إلى الهجوم بعد ذلك مع وصول تعزيزات جديدة لهم، لكنه فرّ ثانية، و"بعد خمسة أيام كرّروا الهجوم بشراسة أكبر واستمرت خمسة عشر يوماً، وعندما عجزوا عن إرضاخ الكرد عمدوا إلى الحصار وقطع مصادر المياه لإرغامهم على الاستسلام"[11]، لكنّ الموقف العسكري للديرسميين في تلك المرحلة قد تضعضع بسبب خلاف الثوار حول التكتيك الواجب اتّباعه في المرحلة القادمة، حيث استغل الجيش العثماني هذا الموقف وقام بهجوم واسع أجبر الثوار على التشتت، لكنهم لم يستسلموا واستمروا في المقاومة بأسلوب حرب العصابات.

وفي واقعة جرت في وادي "منذر" ألحقوا هزيمة منكرة بالجيش العثماني، مما أجبرهم على وقف الحرب والانسحاب من ساحة القتال، حيث كانت جبال ديرسم عصيّة على الغزاة والمستعمرين كافة من

[8] مرجع سابق ص 32.
[9] مرجع سابق ص 34.
[10] مرجع سابق ص 35.
[11] مرجع سابق ص 37.

اليونان والرومان والعرب والعثمانيين، ولذلك كانت ديرسم في معظم مراحل تاريخها تتمتع باستقلال ذاتي لمناعة جبالها وشجاعة أبنائها.

تميزت مقاومة ديرسم عن غيرها بطابعها الشعبي العام حيث شاركت فيها مكوناتها العشائرية كافة وكذلك الإثنية (كالأرمن)، كما قاتلت النساء بشجاعة نادرة وهي سمة كردية عامة وديرسمية خاصة، حيث قدمت ديرسم نموذجاً جيداً للمقاومة الشعبية ودرساً لأشقائهم في المناطق الأخرى من كردستان، بتجنب دخول الحروب كوقود أو مرتزقة لصالح العثمانيين أو الروس والحفاظ على وضع مستقل، والوقوف على الحياد في الحروب الروسية- العثمانية، مما أجبرت الطرفين على التفكير بالصلح ووقف الحرب.

رغم إشغال الكرد مساحة واسعة في سياسة الامبراطوريات العثمانية والروسية والبريطانية وغيرها من الدول جراء انتفاضاتها، إلاَ أنه لم يجرِ تداول مسألتها أو مناقشتها في المحافل الدولية، كمعاهدات: "كوچوك كينارجي، باريس، سان ستيفانو ومؤتمر برلين"[12]، حيث يشير هذا إلى أن الدول العظمى كانت متوافقة مع الدولتين العثمانية والإيرانية المحتلتين لكردستان، ولذلك تجنبت جميعها طرح المسألة الكردية ضماناً لمصالحها، حيث أرادوا إبقاء الدولتين المحتلتين ضعيفتين ليتم "ابتزازهما باستمرار على حساب الكرد"[13].

الدولة العثمانية قبل الانتفاضة:

دخلت الدولة العثمانية في أزمة سياسية واقتصادية خانقة جراء حروبها مع روسيا، وقد وصلت حالة الخزينة العامة إلى الإفلاس سنة 1878، ولهذا عمدت الدولة إلى زيادة نسبة الضرائب من جهة، وطلبت القروض من الدول العظمى من جهة ثانية، وقد بدأت بالتنازلات لصالح انكلترا وفرنسا وروسيا إثر تدخلهم في الشؤون المالية والعسكرية والأمنية، وأدى ذلك إلى حصول أصحاب القروض (بريطانيا، النمسا، فرنسا وإيطاليا) على امتيازات خاصة، وبسبب الديون المتراكمة على السلطنة "تشكلت هيئة رقابية مالية للديون العثمانية على الخزينة العامة تحت إشراف المجلس الأوربي"[14]، يذكر أن الإنتاج الزراعي والحيواني قد انخفض وقتها بشكل كبير، بسبب تجنيد القادرين على العمل خاصة في المناطق الكردية، وقد قامت الجباة بجمع ضريبة الماشية استناداً إلى قوائم السنة السابقة مع أن عدد الماشية قد انخفض إلى أقل من النصف بسبب الحرب.

ولذلك عمّت الفوضى في المناطق الكردية بسبب فساد الموظفين وطلبهم الرشاوى علناً لعدم حصولهم على رواتبهم الشهرية، وكثرت تعديات الجيش على السكان لعدم وجود الثكنات العسكرية والمؤن والرواتب بانتظام، رافق ذلك ارتفاع أسعار الخبز بسبب الجفاف واحتكار السلطات للحبوب، وانتشار "وباء الكوليرا والدسنتاريا بسبب الجوع والبرد والفقر، حيث مات في "هكاري" وحدها عشرة آلاف

---

[12] معاهدة كوچوك كينارجي 1774: فرض الروس على السلطنة العثمانية بحجة حق التدخل الإنساني لحماية المسيحيين الأرثودوكس (أي الأرمن).
معاهدة باريس آذار 1856: فرض الأوربيون على السلطنة العثمانية التزام خط إصلاحي وتحسين ظروف الرعايا في السلطنة.
معاهدة سان ستيفانو آذار 1878: نصت على إصلاحات مباشرة لصالح الأرمن وفيها تم تدويل المسألة الأرمنية حيث شارك الأرمن في الحرب الروسية العثمانية إلى جانب الروس واستقبلوهم كمحررين وليس محتلين.
معاهدة برلين: الغت معاهدة سان ستيفانو بضغط من النمسا وانكلترا على روسيا ونصت على تدويل القضية الأرمنية والتزام العثمانيين بإجراء إصلاحات بعد انسحاب روسيا من ولايات قارص أرزروم. (للاستزادة راجع عطا الله د. دعد بو ملهب "المسألة الأرمنية في النظام الدولي الجديد" ، مركز الدراسات الأرمنية بيروت 1996.)

[13] واستمرت هذه السياسة حتى اليوم (المؤلف).

[14] عوني درية ، عرب وأكراد خصام ووئام ، دار الهلال- القاهرة ص 35.

إنسان ومثلهم في باشكلة (وان) وثلاثة آلاف في بيازيد ومثلهم في بوتان ومديات"[15]، كما أصدر الباب العالي قانوناً بخفض قيمة العملة بنسبة خمسين بالمائة لتكتمل المصيبة، ولذلك اضطر الكرد في ماردين إلى الهجوم على مخازن الحبوب وقتل الموظفين والجنود للحصول على كمية من القمح.

كما اضطر الفلاحون والرعاة إزاء هذا الوضع البائس إلى ترك قراهم وتحوُّلِ بعضهم إلى أُجراء عند البكوات، ولجأ بعضهم إلى الهجرة نحو غرب الأناضول، كما هاجر آخرون إلى روسيا وجورجيا، حيث توجّهت سيول المهاجرين سيراً على الأقدام نحو الحدود الروسية عبر جبال آرارات أملاً في الحصول على مأوى أو ما يسد رمقهم.

أما وضع الكرد في ظل الاستعمار الإيراني فكان بالدرجة نفسها وربما أكثر هولاً، حيث اكتظت حشود الجائعين في ولايات: (خوي، مهاباد، أورميه، سنه) وغيرها، وانتشرت تجارة الرقيق التي لم تألفها كردستان طوال تاريخها، وتحولت مدينة "ديلمان" إلى مركزٍ لبيع الأطفال، وحسب بلاغ القنصل الإنكليزي في تبريز "مات في بعض القرى جميع سكانها"، حيث بادر الجائعون إلى الهجوم على مخازن الحبوب ونهبها غير آبهين بالنظام أو القانون، وقد انتقل الكرد بالتدريج من الهجوم العفوي إلى النضال المسلح ومن ثم نحو انتفاضة شعبية عارمة سنة 1880.

الاستعدادات للانتفاضة:

كان الشيخ عبيد الله الشمزيناني النهري النقشبندي شيخ الطريقة النقشبندية الإسلامية يتمتع بنفوذ قوي في هكاري، وكانت علاقته مع أهل الطريقة أقوى من الرباط العائلي، كما كان يتمتع بنفوذ اقتصادي قوي أيضاً، فإلى جانب اهتمامه بالتجارة يعتبر من كبار ملاكي الأراضي، حيث كان يملك أكثر من مائتي قرية حصل على جزء منها كهبات من السلطان أو الشاه، وأجزاءً أخرى ورثها عن أبيه الشيخ طه، وكانت معظم مزارع التبغ تابعة له ولا ينافسه في تجارة التبغ سوى شركة "ريجي" الفرنسية، كما كانت له رؤية سياسية بدافع نفوذه الاقتصادي، وقد استفاد من سخط الجماهير تجاه جنود وموظفي الدولة العثمانية في بلورة أفكاره وتوجهاته السياسية ضمن مريديه في التكيّات التي اتخذها مراكز للتوجيه الديني والسياسي.

نشير هنا أن التاريخ الكردي لم يلحظ أي نشاطات ملموسة لشيوخ ورجال الدين الكرد، فقد كانت كافة السلطات السياسية والاقتصادية والعسكرية بيد الملوك والأمراء الكرد طيلة القرون العشرة السابقة، ولم يسبق أن تقلّد رجل دين منصباً سامياً على مستوى ملك أو أمير، حيث انحصر دورهم في التوجيه والتدريس والفقه الديني والإمامة، وكانوا بمثابة موظفين تحت إشراف الحاكم بما في ذلك رجال الكنيسة، ويشهد على ذلك القصص الشعبية لأمراء بوتان[16]، في حين كان دور رجال الكنيسة في أوربا رئيسياً، وكانت ثلثي الأراضي والمرافق الاقتصادية تابعة للكنيسة وباباواتها.

أما في كردستان فكان وضعهم شبيهاً بوضع الفلاحين، وإذا ما شذَّ الشيخ أو الملاّ والفقيه عن العمل المكلف به يعاقبه الأمير بصرفه من الوظيفة أو إبعاده خارج البلاد، ولذلك كان عدد الشيوخ (الدعاة) نادراً، أما الأئمة والفقهاء والملالي (المدرسين) فكان عددهم كثيراً ويتقاضون أجورهم من الدولة أو الأمير، حيث كان تشييد المدارس والمساجد وخطط التدريس من واجب الأمير، وهو الذي يصرف عليها النفقات و"كان التدريس باللغة الكردية أو العربية- الكردية"[17] في أمور تفسير القرآن، ولذلك كان رجال

[15] جليل جليلي مرجع سابق ص 43.
[16] قره مان عبد الله ، وطن الشمس ج 2 الفصل التاسع (الأدب الشفهي- القصة).
[17] راجع بالكردية:, Bozarslan Zekî r 311

الدين يخدمون الوطن من خلال تنفيذ أوامر الأمير، ولم يكن لهم ارتباطات خارجية لبعدهم عن العمل السياسي، كما لم يكن يحلمون بالمناصب السياسية، ولذلك لم يلحظ في آثارهم من اهتم بالمسألة الكردية وقضية التحرر من الاستعمار، باستثناءات قليلة مثل شيخنا العظيم الشاعر "أحمدي خاني" في بداية القرن السابع عشر، الذي كان يحلم ويهيب بالأمراء وذوي النفوذ للعمل من أجل إقامة دولة كردية، ومن أجلها ذمّ الملوك والأمراء من خلال أشعاره لتقاعسهم في مناهضة الاستعمار، حيث دافع عن كردستان برؤية سبقت عصره لأكثر من ثلاثة قرون، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر برز عالم الدين الشيخ عبيد الله النهري، لأن الأخير لم يكن بحاجة إلى مساعدة من الأمراء، وإنّ ولوجه في العمل السياسي ربما كان بدفع الحفاظ على مصالحه الاقتصادية.

ومن الطبيعي أن يهتم صاحب النفوذ الاقتصادي والتجاري بالسياسة والأمن، ولذلك سعى الشيخ عبيد الله من أجل إقامة دولة كردية مستقلة لحماية مصالحه، خاصة بسبب نضج الظرف الموضوعي الناتج من شدة ضغط المستعمر العثماني على الكرد، ولذلك اتخذ الشيخ عبيد الله الإجراءات اللازمة للقيام بالانتفاضة وأيّدها الكرد بحماس شديد، كما أيدها كرد إيران وجعلت قراها قواعد لتموين الثوار، ومن أجل تنفيذ ما يصبوا إليه أرسل الشيخ رسالة إلى القنصل الأمريكي في سنة 1878 يؤكد فيها أن "الأمة الكردية شعب قائم بذاته ويحتج على الأعمال البربرية التي ترتكبها الحكومتان العثمانية والفارسية"[18]، لكن الأمريكان أغفلوا رسالته، وكانت روسيا تراقب التطورات بدقة، خاصة بعد أن وصلتها تقارير تؤكد نية الشيخ عبيد الله الانفصال عن تركيا، حيث كان الشيخ يعمل جاهداً لكسب تأييد روسيا والاعتماد عليها أكثر من بريطانيا، كما أبدى استعداده بالوقوف إلى جانب روسيا في حال نشوب حرب بينها وبين تركيا أو انكلترا، من خلال سيطرته على الممرات الجبلية في "وان" و"آمد"، لكن القنصل الروسي أوصى في تقرير له "برفض طلب الكرد والاعتماد على السكان المسيحيين في شرق الأناضول"[19].

حاول عبيد الله استمالة العرب والآشوريين والأرمن إلى جانبه لأنهم كانوا يعانون من الاضطهاد العثماني مثلهم، ولهذا أجرى اتصالات مع: شريف مكة، خديوي مصر، مار شمعون بطريرك الآشوريين وممثلي الأرمن، وقد لقي تجاوباً من العرب في ولاية بغداد واتفقوا أن تكون القوات العربية والكردية تحت أمرة "فرحان باشا" ، كما حاول الشيخ كسب تأييد الدول الأوربية.

قسّم الشيخ قواته إلى جبهتين: إحداها تضم قسماً من الثوار مع رجال قبائل (مانگور ومامش) في الجانب الإيراني، يقودها ابنه الشيخ عبد القادر ومهمتها الاستيلاء على مدينتي الموصل والعمادية، والأخرى يقودها الشيخ عبيد الله نفسه مهمتها الاستيلاء على المركز الإداري في مدينة وان.

كانت الاستعدادات جارية لاستكمال متطلبات الثورة، وفجأة جرت اضطرابات عفوية قامت بها قبيلة حيدران في شمال شرق مدينة وان ضد الدولة العثمانية بسبب الفقر والاضطهاد، حيث سارع الشيخ عبيد الله لمؤازرتها في شهر آب 1879 واستمرت حتى حلول الشتاء، وقد تدخّل الجيش العثماني لمنع انتشار الاضطرابات، كما توجّه الجيش نحو "هكاري" لمحاصرتها وعزلها عن المناطق المجاورة عبر الممرات الجبلية لعلمهم بتحضيرات الثورة فيها، ومن جهة ثانية اتصل "بحري بك" ياور السلطان عبد الحميد بالشيخ عبيد الله لمحاولة ثنيه عن الانتفاضة وإغرائه بالهدايا والوعود، لكنه فشل في مهمته ولم يتمكن من إقناع الشيخ، كما أن الشيخ عبيد الله أوعز إلى الشعب بعدم دفع الضرائب والإتاوات للدولة.

[18] إيگلتن وليام ، جمهورية مهاباد ص 20.
[19] جليل جليلي مرجع سابق ص 52.

تلقى الشيخ عبيد الله نتائج إيجابية من اتصالاته مع الآشوريين لكسب تأييدهم، لأنهم كانوا ينبذون المبشّرين الأمريكيين البروتستانت الذين يخالفونهم في المذهب، ولذلك أيد "مار شمعون" انتفاضة هكاري، إضافة إلى أن الشيخ كان لا يفرّق في تعامله مع المسيحيين عامة عن الكرد، وكان يعاقب العصابات الكردية التي تعتدي عليهم ويعيد إليهم حقوقهم، وقد أقلق هذا التقارب الكردي- الآشوري بريطانيا، لأنها كانت قد أناطت بالآشوريين حماية المصالح البريطانية والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في قمع الانتفاضات الكردية.

لقيت انتفاضة هكاري صدىً واسعاً في شرق كردستان، خاصة بعد أن ارتكبت الحكومة الفارسية جرائم بحق الكرد، مما دعا الشيخ عبيد الله إلى الانتصاف لضحاياها، وتلبية لنداء وجّهه الشيخ عبيد الله استجابت عشيرة "شكاكا" الكردية، حيث عبرت مجموعة مسلحة من أفرادها على الفور الحدود الإيرانية- العثمانية وانضمت إلى القوات الثائرة في هكاري، كما استجاب "حمزه آغا" زعيم قبائل منكور، وقد أقلقت الاستعدادات الكردية للانتفاضة الانكليز قبل الدولة العثمانية، حيث كانوا يرون أن الانتفاضة الكردية خطيرة للغاية، لأن الانكليز كانوا يعملون من أجل تحويل الممالك العثمانية إلى مستعمرات لهم، ولهذا أرسل القنصل الانكليزي في أرزروم الرائد "تروتر" رسالة إلى القسطنطينية اتّهم فيها سامح باشا قائد الجيش العثماني في "وان" بأنه "لا يقدّر أهمية الانتفاضة"[20]، ونشير في هذا السياق أن موقف الدولة العثمانية من الانتفاضة المحتملة كان إيجابياً بشكل عام، رغبة منها في إضعاف إيران خصمها التقليدي.

تمكن الشيخ عبيد الله من تهدئة الاضطرابات مع الجيش العثماني لاستكمال استعدادات الانتفاضة، حيث كان يتحرك من أجل إقامة تحالفات عشائرية واسعة، وكان الباب العالي من جهته يعمل جاهداً لجذب الأوربيين والكرد إلى جانبه واستخدامهم ضد الأرمن، حيث قامت الصحف العثمانية (وقت، حقيقت، عثمانلي) بنشر مقالات لتخويف الكرد من "وحشية الأرمن" و"أرمنة الكرد"، والانكليز من جهتهم كانوا قلقين من قيام اتحاد عشائري كردي ويجهدون لتخويف الباب العالي ويحمّلونه مسؤولية قيام الاتحاد، لدرجة "مناقشة أصداء الاتحاد الكردي في البرلمان الانكليزي"[21]، وفي تطور لاحق طالب الرأي العام التقدمي الأرمني إنشاء اتحاد أخوي بين الكرد والأرمن في مواجهة الباب العالي والقيام بانتفاضة مشتركة، حيث كانوا يرون الكرد "أمة مظلومة ومستعبدة مثل الأرمن"، إلاّ أن الانكليز لعبوا دوراً خبيثاً في إبعادهم عن الاتحاد مع الكرد وإظهار أنفسهم كأصدقاء ومدافعين عن الأرمن.

كان الشيخ عبيد الله قد أرسل مبعوثين إلى جميع زعماء الكرد وزوّدهم برسائل شرح فيها أفكاره ومخططاته الثورية، منوهاً أن الدولتين العثمانية والإيرانية لا تملكان الحق في حكم الكرد، وبتوحيد البيت الكردي سيكون نجاح الانتفاضة وتكوين دولة مستقلة مسألة سهلة، وإن خلق مجتمع متحضر مسألة مضمونة، كما أرسل مبعوثاً إلى روسيا طالباً منها التأييد والمساندة، إضافة إلى اتصالاته مع الأرمن والآشوريين والتأكيد لهم أنهم سينالون حقوقاً مساوية للكرد، لكنه لم يلق رداً إيجابياً بسبب مساعي الانكليز الخبيثة.

وفي سياق الجهود الانكليزية شارك سفيرا بريطانيا لدى الدولتين العثمانية والإيرانية في المباحثات التي جرت بين السلطان والشاه، وقد توصّل الطرفان إلى التوقيع على اتفاقية لمحاربة الكرد وذلك بضغطٍ من السفيرين، كما قام القنصل الانكليزي بزيارة الشيخ في معقله ببلدة شمزينان (شمدينلي)، وأخبره بأن واجب بريطانيا منع الاضطرابات التي تهدد وحدة أراضي الامبراطورية العثمانية الصديقة، وقد صادفت

[20] مرجع سابق ص 55.
[21] مرجع سابق ص 57.

زيارته مع انعقاد مؤتمر الزعماء الكرد في نهاية تموز 1880، حيث كان أول مؤتمر في التاريخ يسعى من أجل وحدة الشعب الكردي.

خرج الشيخ عبيد الله من المؤتمر بعد مناقشات مستفيضة برؤية مفادها: أن الوضع السياسي والاقتصادي والعسكري في إيران يشكل الظرف المناسب لتطور الانتفاضة في المرحلة الأولى، كون الجيش الإيراني في حالة حرب مع التركمان، إضافة إلى الاختلاف في المذهب الديني، ولأنه لا يمتلك القوة الكافية لفتح جبهتين، وسيكون تحرير الكرد من النير العثماني في المرحلة الثانية، وكذلك نزولاً عند رغبة بعض الزعماء بعدم معاداة الدولة العثمانية، ربما كان السبب يعود إلى وحدة الدين والمذهب أو بسبب الضغط البريطاني، ولهذا وضع الشيخ الخطط اللازمة لإعلان الحرب على إيران، ووزّع المهام على القادة الميدانيين في جبهات: سنه ، خوي و أورميه.

إعلان الانتفاضة:

مع انطلاقة الشرارة الأولى للثورة وجّه الشيخ عبيد الله مجموعة من الرسائل إلى المسؤولين الإيرانيين والبعثات الأجنبية والإرساليات التبشيرية ووجهاء إيران، مبيناً فيها الممارسات الإيرانية السيئة تجاه الكرد، حيث أوضح في رسائله كيف أقدم محافظ أورميه بإعدام خمسين رجلاً من أتباعه سنة 1879 ، وقام بتعذيب الزعيم الكردي فرج الله خان حتى الموت، وانتهاك حرمة النساء وجرائم أخرى لا تحصى، ولذلك تعذّر على الكرد نيل حريتهم دون القيام بالثورة، وفي رسالة إلى محافظ أورميه تطرق فيها إلى خنقه للشعب بالضرائب والإتاوات والقتل والنفي واتهامه الدائم للكرد بحوادث السلب والنهب.

اضطر الشيخ عبيد الله في بداية صيف 1880 وقبل استكمال تحضيراته إلى توجيه رجاله نحو القوات الإيرانية التي بدأت الحرب من جهتها، حيث توغلت في عمق المناطق الكردية الواقعة تحت السيطرة الإيرانية والتي امتنعت عن دفع الضرائب لها، وهدمت تلك القرى واستولت على ممتلكاتها، وقد تصدّت لها قوات الانتفاضة البالغة عددها حوالي عشرين ألف مقاتل بقيادة سيد عبد القادر ابن الشيخ عبيد الله و"ألحقت الهزيمة بالقوات الإيرانية ووصلت إلى مشارف أورميه وأصفهان وحاصرتهما"[22]، حيث اضطرت إيران إلى طلب المساعدة من روسيا والدولة العثمانية لوقف تقدم القوات الكردية، وقد ضغطت انكلترا وروسيا على السلطان عبد الحميد لتحريك جيشه نحو "وان" و"هكاري"، لقطع المساعدات بين غرب كردستان وشرقها وضربها من الخلف، ونفّذ السلطان ما طُلِبَ منه، وبذلك أصبحت قوات الشيخ عبيد الله البالغة حوالي مائة ألف مقاتل عملياً في قلب الثورة وبمثابة إعلان للثورة.

مع بداية أيلول 1880 استولت قوات الانتفاضة على مقاطعتي "لاهيجان" و"سردشت" (في الجانب الإيراني)، ومع تحقيق التقدم وقفت معظم القبائل الكردية إلى جانب الانتفاضة، وانضم إليها في تلك الأثناء تسعون ألف رجل من عشائر: مانگور، مامش، موكري، ديبوكري، شكاك، جاف وغيرها، ودخل الثوار مدينة مهاباد دون مقاومة تذكر، وسمحوا للمحافظ وحاشيته بمغادرة المدينة، واستولوا على كافة مخازن الأسلحة والأموال، لكن إمام المدينة لعب دوراً سلبياً جعل الانتفاضة تنحرف عن مسارها وهدفها المنشود، ولم يعترض عليه أحد أو ربما لم يكترث به أحد، وهو إعلانه في خطبة الجمعة "**الحرب المقدسة على الشيعة الإيرانية**"[23].

---

[22] راجع بالكردية : Bozarslan Zekî r 315

[23] الحرب على الشيعة الإيرانية لا يعني محاربة السلطة الفارسية فقط، حيث معظم الشعوب الإيرانية من الفرس والعرب والتركمان وغيرهم شيعة، إضافة إلى نسبة غير قليلة من الكرد شيعة وهم القاطنون في اقليم لورستان وجوارها الذين يسمّون الكرد الفيلية- المؤلف.

كما زحفت قوات الانتفاضة نحو المدن الأخرى واستولى على مدينة مهاباد دون أن تعترضها مقاومة جدية، باستثناء مدينة "ميانداوب" التي قاومت ليومين واستولت فرقة حمزة آغا عليها، ثم تقدمت نحو المدينة الرئيسية "تبريز"، وأثار الرعب قدومهم نحو المدينة، حيث "جهزت القنصليات الأجنبية أرشيفاتها لمغادرة المدينة فوراً وأدّى زيادة الخوف إلى قطع الاتصالات البريدية"[24]، وقد فسّرت وقتئذ جريدة "التايمز" اللندنية تلك النجاحات المتلاحقة، أن السكان الكرد استقبلوا الشيخ عبيد الله كمحرر لهم، واتخذت قيادة الانتفاضة إجراءات كفيلة لحماية السكان وممتلكاتهم وتعيين إداريين لرعاية شؤونهم، وأثناء الاشتباكات كان الضباط والجنود الكرد في الجيش الإيراني يقفون غالباً إلى جانب الثوار.

صمدت مدينة "أورميه" وحدها في وجه قوات الانتفاضة التي كان يقودها الشيخ عبيد الله بنفسه، لأن أورميه كانت محاطة بقوات إيرانية كبيرة وقوية، وقد وجّه الشيخ رسالة لأهل المدينة في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول 1880 طلب فيها من السكان الاستسلام دون قتال، وكان السكان يرغبون في الاستسلام، إلا أن المحافظ بغية كسب الوقت طلب إجراء محادثات عن طريق القنصل الانكليزي وقام بإجراءات لتجنب سقوط المدينة، إلا أن الشيخ رفض المحادثات وقد عبّر للقنصل عن عدم ارتياحه للسلطات الإيرانية، وكان الشيخ قد وعد القنصل بحماية المسيحيين ومعاملتهم على قدم المساواة مع المسلمين، وسعى القنصل من جهته إلى إبعاد المسيحيين عن الحركة الكردية وعدم الانضمام إليها بعد أن علم بانضمام ثلاثمائة آشوري إليها، وعشية اقتحام المدينة طلب الشيخ إخلائها من المسيحيين كي لا يصيبهم أية أذى، وما أن علمت الدولة العثمانية بالهجوم على أورميه حتى سارعت على الفور إلى حشد قواتها في "أرزروم" و "وان" لترقّب الأوضاع بداية، لأن سقوط أورميه كان يعني نجاح الثورة الكردية، ومن ثم بدأت تناوش قوات الانتفاضة من الخلف.

حشدت إيران كافة قواتها لقمع الانتفاضة ووزّعت قواتها على ثلاثة فيالق: وجّهت إحداها نحو مدينة "تبريز" ، وتحرك الفيلق الثاني من مدينتي "ماكو" و"خوي" للهجوم على الثوار، والفيلق الثالث تحرك من مدن "طهران" و"همدان" و"قزوين" برفقة ضباط نمساويين كانوا قد أشرفوا على تدريبهم، وفي الوقت نفسه طلب الشاه من روسيا وانكلترا الضغط على السلطان العثماني لحمله على اتخاذ إجراءات عسكرية ضد الحركة الكردية، حيث كانت القوات الروسية منشغلة وقتئذ في حملة تأديبية في تركمانستان، ولم تتمكن من التدخل لكنها مارست نشاطاً دبلوماسياً مكثفاً وضغطت على الدولة العثمانية لاتخاذ إجراءات فعالة ضد حركة عبيد الله، وقد تمت الاستجابة لطلب الشاه حيث أرسل "الباب العالي" تسعة كتائب إلى الحدود الإيرانية تحت الضغط الروسي- البريطاني، كما حشدت روسيا قوات عسكرية في "نخجوان" على الحدود الإيرانية.

مما يؤسف له أن المعركة الكبرى لم تحدث مع الجيش الإيراني، بل بالهجوم الذي شنّه "تيمور خان" رئيس عشيرة الجلاليين على رأس سبعة آلاف مسلح قادمين من "ماكو" و"خوي" على معسكر الثوار المحاصرين لمدينة مهاباد عن طريق "سلماس"، فاعترضته قوات الشيخ عبيد الله لتخفيف الضغط على الثوار، حيث جرت معركة حامية بينهما أخفقت فيها قواته واضطر إلى التراجع، ثم استغل تيمور خان الوضع العسكري ونكل بالأهالي الذين عضدوا الثوار وسلب أموالهم، وكان محافظ "ميانداوب" قد أقسم على "قطع رأس كل كردي يقع تحت يديه"[25] ، ولذلك انهارت الحالة النفسية للكرد إثر تعرضهم لوحشية الجيش الإيراني.

[24] جليل جليلي مرجع سابق ص 71.
[25] مرجع سابق ص 77.

من ناحية أخرى يبدو أن الغرور ونشوة النصر قد أصابت الثوار بعد إحرازهم انتصارات متتابعة، حيث انصرف قسم من الثوار للسلب وجمع الغنائم بسبب الفقر من جهة والسخط على نظام الشاه من جهة ثانية، وغادر بعضهم صفوفهم عائدين إلى بيوتهم، وقد كان هذا سبباً رئيسياً لإخفاقهم في المعركة، ولذلك أصبح وضع الثوار المحاصرين لمدينة "مهاباد" بقيادة حمزة آغا صعباً، وباندلاع المعركة الحامية على أطراف مهاباد تعرض الثوار لخسائر كبيرة وفشلوا في مسعاهم، وعلى إثرها تغلغلت القوات الإيرانية في عمق الأراضي الكردية دون أن تعترضها أي مقاومة قوية، حيث تعرضت جميع قرى مهاباد للنهب والسلب والحرق، وقد كتبت جريدة "وقت" التركية بتاريخ الثالث من شباط 1881 بهذا الصدد: "أمر سپاي سالار (قائد الجيش) بعدم الرحمة بالكرد وحرق قراهم وإتلاف مزروعاتهم"، وقد شجّعهم وأمرهم لاقتراف تلك الأعمال الوحشية الضباط النمساويون المرافقون لهم، كما هددوا بمعاقبة من يتقاعس عن تنفيذ أوامرهم.

اضطرت قوات الانتفاضة تحت ضغط الجيش الإيراني وتقلص أعداد الثوار إلى التراجع، وانسحب الشيخ عبيد الله نفسه إلى معقله في هكاري في شهر تشرين الثاني 1880 ، وقد طالبت إيران من "الباب العالي" تسليمها الشيخ عبيد الله وأعوانه لمحاكمته، وأيدت طلبها كل من بريطانيا والنمسا.

بعد هذا الإخفاق الكبير وانسحاب الشيخ وأعوانه أعلن معظم زعماء شرق كردستان تبعيتهم للشاه، إلا أن قبيلة "مانگور" وعلى رأسها "حمزة آغا" رفضت الانسحاب والاستسلام، كما رفض رئيسها المفاوضات والحلول الجزئية التي عرضت عليه وأصرّ على الاستمرار في المقاومة، حيث تعرضت مواقعه وقرى القبيلة للتدمير الشامل بما فيها من البشر والممتلكات، وأخيراً اضطر حمزة آغا إلى الانسحاب مع رجاله الشجعان إلى الجبال الواقعة على الحدود العثمانية الإيرانية، وبدأ بشن حرب العصابات سبيلاً للمقاومة، حيث أدخل الهلع والذعر في صفوف الجيش الإيراني بهجماته المفاجئة والقوية، ولمّا لم تفلح مبادرات الصلح لجأ محافظ أورميه إلى الحيلة والدهاء والاستغلال الديني، حيث بعث من يخبره ويصدقه بأن المحافظ أقسم بالقرآن أن لا يمسه بسوء ويمنحه الأمان، إذا أبدى حمزة آغا من جانبه الإخلاص، وجاء للقائه في يوم العيد المبارك حقناً لدماء المسلمين، عندئذ أخبر حمزه آغا الوسيط بالموافقة، ولدى قدومه يوم العيد وقع في الفخ المنصوب له، لكنه أبى الموت ذلاً وامتشق سلاحه وقاوم بكل ما أوتي من قوة، ورغم شجاعته اللامحدودة إلا أن الأسد وقع صريعاً مع رجاله، حيث جزّ المحافظ رأسه وأرسله إلى أورميه ليعرض هناك، ثم تعرضت كردستان إلى موجة جديدة من التنكيل والتهجير القسري لأعداد هائلة، وأُبعِدوا إلى مختلف مناطق إيران النائية لمنع تكرار التمردات الكردية لاحقاً.

بعد فشل الشيخ عبيد الله في تحقيق أهداف الانتفاضة، قام بمراجعة ذاتية لتبيان أسباب الفشل والتفكير في تنظيم انتفاضة جديدة موجهة ضد الاستعمار العثماني، ومن جهة ثانية كانت الدولتان الإيرانية والعثمانية تتبادلان التهم لبعضهما حول الانتفاضة الكردية، وكل منهما يلقي اللوم على الطرف الآخر، فقد كان الشاه يطالب باعتقال الشيخ ومحاكمته وإنزال أشد العقوبات بحقه، ويساعده في طلبه كل من انكلترا والنمسا، وكان "الباب العالي" بدوره يتهم إيران بالسماح للكرد بشنّ الغارات على مدن: "وان" و"الموصل" و"بغداد"، لذا ضغطت روسيا وانكلترا على الباب العالي لاتخاذ إجراءات سريعة لمنع قيام انتفاضة جديدة، ومن جهته طلب الشاه ناصر الدين (1848-1896) من روسيا اتخاذ إجراءات ضرورية لتعزيز الأمن على حدود أذربيجان، كما طلب من الدولة العثمانية إعاقة أي انتفاضة جديدة.

عمد الشيخ عبيد الله إلى تصحيح العلاقات مع الأرمن بعد أن تم إهمالها سابقاً تمهيداً لانتفاضة جديدة، وكانت فكرة الانتفاضة الجديدة قد لاقت قبولاً من العرب والآشوريين "وقد عبّر حوالي خمسة آلاف مسلح عربي عن استعدادهم لتلبية نداء الشيخ بالانتفاضة"[26]، حيث عمد إلى تدريبهم على أسس جديدة.

أرسلت الدولة العثمانية بعض القوات إلى "وان" بعد أن علمت بتحضيرات الانتفاضة، وبعد توتر الأوضاع أرسلت قوات كبيرة نحو إقليم هكاري معقل الشيخ عبيد الله، حيث طلبت منه لقاءاً فورياً مع ممثل السلطان بغية مقابلة السلطان نفسه، لكن الشيخ عبيد الله ماطله وطلب تشكيل لجنة خاصة يحضرها ممثلو الدول الأوربية لبحث القضية الكردية وموضوع مقابلة السلطان ووقف الحشود العسكرية، لكنه اضطرّ إلى الموافقة تحت الضغط العسكري الشديد في نهاية ربيع 1881 على المقابلة، حيث سافر إلى استانبول برفقة كتيبة فرسان من حرس الشرف السلطاني، ولدى وصوله إلى استانبول استقبله السلطان باحترام لائق بحضور الشخصيات الرسمية وحشد شعبي كبير ودوّت المدفعية بطلقات التحية على شرف الشيخ عبيد الله، ومن ثم تحوّل الضيف إلى أسير في قصر السلطان أو ما يسمى "إقامة إجبارية".

أثناء إقامته في القصر تواصل الشيخ سراً مع ابنه عبد القادر، وأعدّ خطة الفرار يوم عيد الفطر في نهاية حزيران 1882 ، وقد تمكن من الفرار بزيّ تاجر وجواز سفر مزور على متن باخرة فرنسية ووصل إلى كردستان، حيث استقبله ابنه مع آلاف المسلحين، ثم زار كنيسة أرمنية في شمال "وان" عبّر فيها عن امتنانه للشعب الأرمني الشقيق، وطمأنهم بإزالة كافة الأحقاد القديمة، وكانت الدولة العثمانية تراقب تحركاته وحاولت زرع الفتنة بينه وبين الأرمن عندما قامت بحرق سوق شعبي في "بدليس" تعود معظم محلاته للتجار الأرمن، واتّهمت السلطات رجال الشيخ بحرقها، وأثناء توجه الشيخ إلى مقرِّه في "شمزينان" اعترضته قوة عثمانية وحدث اشتباك أسفرت عن هزيمة القوة العثمانية.

أثار وصول الشيخ عبيد الله إلى هكاري الرعب في الأوساط العثمانية والإيرانية معاً، حيث بادرت كل منهما إلى تحصين الحدود وحشد القوات في محيط هكاري، وقد راوغ الشيخ كنوع من الحيلة وأكد للطرفين بأنه لا ينوي القيام بعمليات حربية، لكنه يجري الاستعدادات للاحتفال بزواج ابنه ، وفي حقيقة الأمر كان يجري الاستعدادات للحرب.

أجرى سكرتير السلطان في تلك الأثناء اتصالاً مع الشيخ لإقناعه بالإقامة في إحدى المدن السعودية المقدسة على نفقة الدولة مع راتبٍ شهري مُغرٍ، لكنه رفض اقتراحه، عندئذ هاجمت القوات العثمانية معقله الحصين في قلعة "أورامار" وبعد حصار دام ثمانية عشر يوماً، رافقه قصف شديد بالمدفعية الثقيلة إلى أن انهارت القلعة، وتمّ اعتقال الشيخ عبيد الله ونقله تحت حراسة مشددة إلى الموصل، وأرسل ابنه محمد صديق كرهينة إلى استانبول، وقد حلّ عبد القادر مكان أبيه الشيخ حيث أراد مواصلة السير على خطاه، لكنه أخفق في مسعاه ولم يجانبه النصر في معاركه مع الجيش العثماني، وبعد فترة قصيرة تم ترحيل الشيخ إلى منفاه في مكة، ثم بدأت الاضطرابات تخف بعد تجريد الزعماء والمقاتلين من قياداتهم، حيث حرم المعقل الجبلي الكردي المركزي ذا الموقع الاستراتيجي وحدته العسكرية والسياسية، وخمدت ثورة الكرد وتفكّكت عرى وحدة القبائل الكردية وضاعت أحلامهم في تحقيق دولة مستقلة، لكن حقد الشعب الكردي على المستعمرين لم يخمد وبقي متّقداً، وفي سنة 1883 توفي الشيخ عبيد الله في ظروف غامضة يكتنفها الشك عن عمر يناهز اثنين وخمسين عاماً في مكة، لأنه لم يكن يعاني من أية أمراض مستعصية.

[26] مرجع سابق ص 81.

جذب النشاط الكردي ومهاراتهم الحربية في موقعهم الاستراتيجي انتباه الروس، حيث تمكّنوا من التقرب من عدد من الزعماء الكرد منهم: "جعفر آغا" رئيس عشيرة الشكاك، عبد الرزاق بدر خان وسيد طه حفيد الشيخ عبيد الله ، وفي "سنة 1889 استقبل هؤلاء الثلاثة في روسيا بدعوة من القيصر نقولا الثاني، وعادوا محملين بهدايا نفيسة ورسائل تشجيع ألهبت خيالهم وأثارت طموحهم"[27] ، للاستفادة منهم مستقبلاً.

تقييم فشل الانتفاضة:

يمكن إيجاز أسباب فشل الانتفاضة في عدة نقاط أهمها:

على الصعيد الداخلي:

- لم ترق الانتفاضة إلى مستوى عصري بمقاييس نهاية القرن التاسع عشر، وإنما بقيت بمستوى عقلية القرون السابقة وإن ارتقت من انتفاضة قبلية إلى تحالف قبلي بقيادة عقلية دينية.

- لم تستفد قيادة الانتفاضة من المفاهيم والإيديولوجيات العصرية مثل أفكار الثورة الفرنسية، وبقيت رهينة العقلية القبلية المتخلفة والإيديولوجية الدينية الإسلامية، حيث أعلن الشيخ عبيد الله أن الحكومتين العثمانية والإيرانية "تقفان عقبة في طريق تطورنا وكان أجدادنا يطلبون من كل المؤمنين بالقرآن أن يضحّوا بدمائهم من أجل الدين وحرية الوطن"[28].

- لم تتمكن الانتفاضة من جذب المكونات العرقية والمذهبية في كردستان إلى جانبها أو طمأنتها وإبعادها عن الأعداء بسبب رؤيتها القومية البدائية ، وقد استغلتها الامبراطورية العثمانية لخلق التناقضات بين الكرد والأرمن وبين الكرد والآشوريين لصالحها، ولو تم عقد تحالف متين معهما لكسبت الشعوب الثلاثة مزيداً من الحقوق والحريات، لكن سياسة فرق- تسد التي طبقت بعناية فائقة والبنية الفكرية الرجعية لقيادة الانتفاضة حالت دون قيام تحالف المكونات الكردستانية.

- كانت النزعة المذهبية السنية أقوى من النزعة القومية، ناهيك أن المريدين وأتباع الشيخ النقشبنديين كانوا يشكلون طبقة فوقية، ولذلك خسرت الانتفاضة الكثير من مواقعها عند إعلانها الحرب المقدسة على الشيعة.

- الضعف التنظيمي والإداري وعدم الانسجام بين القبائل المتحالفة، وهذا ما أدى إلى قيام السلطان عبد الحميد بتطبيق سياسته الكردية وذلك بتأسيس الألوية الحميدية استلهاماً من النموذج الروسي "ألوية القوزاق".

- وأخيراً وأكثرها أهمية هو غياب برنامج سياسي واضح.

على الصعيد الخارجي:

- لم تستفد الانتفاضة من تناقضات الدولتين العثمانية والإيرانية لترتيب البيت الكردي وتهيئته للانتفاضة واكتفت بشنّ العمليات الحربية عند ارتفاع حدة التناقضات بينهما، وكانت الدولتان تلجآن فوراً إلى التفاهم والاتحاد لمواجهة العدو الكردي المشترك.

---

[27] إيكلتن مرجع سابق 21.

[28] جليل جليلي ، نهضة الأكراد الثقافية والقومية ، دار الكاتب بيروت 1986 ص 15.

- غياب الرؤية السياسية في تقييم مصالح الدول الغربية والأفكار الرأسمالية الصاعدة، وجهل قيادة الثورة في فهم نوايا الانكليز والروس والنمساويين.

- نقص التوجيه والدعاية الفكرية حيث بقي مفعول المفهوم السائد في الخارج أن "الكرد عناصر حربية طيبوا القلب يمكن استخدامهم بسهولة كمرتزقة بكلمات معسولة".

- لم تتمكن الانتفاضة من تقييم مصالح الدول الأوربية كل على حدة مع الدولة العثمانية المتهاوية والاستفادة من التناقضات الحاصلة بينها.

- لم تنتبه الانتفاضة إلى أن بريطانيا كانت تسعى أكثر من غيرها للقضاء على كل جهد كردي مشترك عملياً، وتتظاهر بمساعدتهم بغية توسيع نفوذها في إيران والدولة العثمانية.

وباختصار يمكن تقييم انتفاضة عبيد الله أنها كانت شبيهة بانتفاضة بدرخان بك من حيث القاعدة الشعبية لكنها كانت أكثر شمولية، حيث تجاوزت الحدود العثمانية وآمنت بوحدة جميع الكرد، لكنها تجاهلت دور العلويين الكرد والمكونات الثقافية الأخرى في كردستان، ولو تمكنت قيادة الانتفاضة في التخلص من النزعة المذهبية والدينية واستيعاب المكونات الكردستانية، أو لو اكتسبت الانتفاضة مساندة من إحدى القوى الخارجية المهيمنة على كردستان (عصرئذٍ) لربّما تمكنت من تأسيس دولة رسمية.

وبتعبير آخر كانت الانتفاضتان (عبيد الله- بدرخان) نقلة نوعية متقدمة في تاريخ كردستان قياساً بالقرون العشرة الأخيرة، حيث كانتا تهدفان إلى وحدة واستقلال كردستان ووضعتا بعض الأسس اللازمة لقيام تحالفات شعبية وحركة تحرر قومية، لكنها لم ترق إلى مستوى ثورة شعبية وحركة تحرر وطنية بمقاييس ذلك العصر؛ حيث كان هدف إحداها (بدرخان) تأسيس مملكة كردستانية وراثية شاملة أو محدودة المساحة، وهدف الثانية تأسيس دولة كردستانية موحدة مستقلة دينية سنية، وقد استمرت الانتفاضات اللاحقة تقودها قيادات اقطاعية- عشائرية ذات برامج بدائية تجاوزها الزمن، ولم يسمح للأوساط الشعبية بممارسة أي دور قيادي، وبتعبير آخر يمكن تقييم القرن التاسع عشر بأنه عصر تدشين الحركات الكردية المناهضة للمحتلين الأتراك والإيرانيين ولكن بأساليب متخلفة عن العصر.

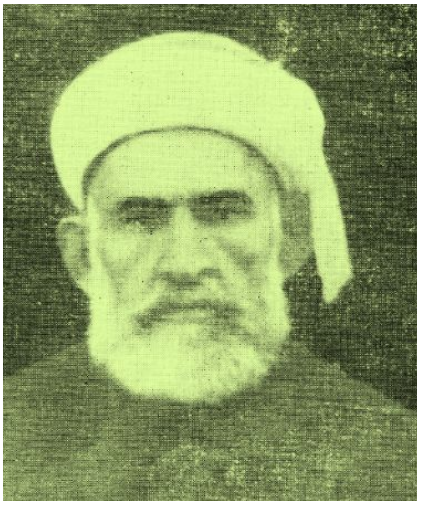

سيد عبد القادر بن الشيخ عبيد الله النهري رئيس جمعية تعالي كرد

قائمة المراجع:

أوجلان عبدالله، مانيفستو الحضارة الديمقراطية- ج 5 - القضية الكردية، مطبعة روناهي 2013.
إيگلتن وليام الابن ، جمهورية 1946 الكردية (مهاباد) ، ترجمة جرجيس فتح الله ، دار الطليعة بيروت 1972.
جليل جليلي ، انتفاضة الأكراد 1880 ، ترجمة سيامند سيرتي ، دار الكاتب- بيروت 1979.
عوني درية ، عرب وأكراد خصام ووئام ، دار الهلال- القاهرة.
عطا الله د. دعد بو ملهب ، المسألة الأرمنية في النظام الدولي المعاصر ، مركز الدراسات الأرمنية ، بيروت 1996.
قره مان عبد الله ، وطن الشمس ج 2 دار شلير ، قامشلو 2017.
وبالكردية:
Zekî Bozarslan, Nêrînek li dîroka Kurdistanê, weṣana Doz, çapa yekê, Îstanbol 2004.